مقدمة

في نشأة علوم البلاغة وتاريخها وكلمة موجزة عن أشهر علمائها ووصف مؤلفاتهم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم

- ١ -

كان أبو أمامة زياد النابغة الذبياني حَكَمَ العرب في الجاهلية، وكانوا يضربون له قُبَّةً من أدَمٍ بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها، فيقول فيها كلمته، فتسير في الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها.

(١) قالوا: جلس النابغة للفصل مرة، وتقاطر عليه الشعراء ينشدون بين يديه آخر ما أحدثوه من الشعر، أو أجود ما أحدثوه، وكان فيمن أنشده أبو بَصِير مَيْمون أعشى بني قيس، فما إن سمع قصيدته حتى قضى له. ثم جاء من بعده كثير من الشعراء فيهم حسان بن ثابت الأنصاري، فأنشدوه، وجاءت في أُخْرَيَاتِ القوم تُماضر بنت عمرو بن الشَّرِيد الخَنْسَاء، فأنشدته رائيتها التي ترثي فيها أخاها صخر بن عمرو، والتي تقول فيها:

وإن صخراً لمولانا وسيِّدنا وإن صخراً إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه عَلَم في رأسه نار

فيروقه هذا القول، ويأخذ بنفسه، فيقول للخنساء: «لولا أنَّ أبا بَصِير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس» وحسان يسمع ذلك، فتأخذه الغيرة، ويذهب الغضب بتجلّده، فيقول له: «أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك» فيقبل عليه أبو أمامة فيسأله: «حيث تقول ماذا» ؟ فيقول: حيث أقول:

لنا الجَفَنَات الغُــرُّ يلمعن بالضحى ... وأســيافنا يقطرن من نَجْــدَةٍ دما

ولدنــا بني العنقــاء وابْنَــيْ مُحَرِّق ... فأكرم بنا خــالا، وأكــرم بنا ابنما

فيقبل عليه النابغة فيقول له: إنك شاعر، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك، وقلت: «يلمعن بالضحى» ولو قلت: «يبرقن بالدجى» لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف في الليل أكثر، وقلت «يقطرن من نجدة دما» ولو قلت «يجرين» لكان أكثر لانصباب الدم، ولن تستطيع أن تقول:

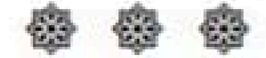
فإنــك كالليل الذي هــو مُدْركِي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واســع[1]

خطاطيــف حُجْنٌ في حبــال متينة ... تمــدُّ بهــا أيْــدٍ إليــك نــوازع

(٢) وقالوا: قدم النابغة المدينة، فدخل السوق، فنزل عن راحلته، ثم جَثَا على ركبتيه، ثم اعتمد على عصاه، ثم قال: ألا رجل ينشد ؟ فتقدم إليه قيس بن الخطيم، فجلس بين يديه، وأنشده:

* أتَعْرِفُ رَسْماً كَاطِّراد الـمَذَاهِبِ *

فلم يزده على نصف بيت حتى قال له: أنت أشعر الناس يا ابن أخي!.



(١) البيتان من اعتذارات النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر ملك العرب في الحيرة، يريد النابغة بكلامه لحسان أنه وإن كان شاعراً لم يبلغ درجته.



هكذا يحدثنا الرواة، وليس يعنينا أن تصدق هذه الواقعة أو تكذب، فإن لها على كل حال دلالة صادقة على ما نريد أن نثبته في هذا المكان؛ فهي تدل -على أقل تقدير- على أن علماء الصدر الأول الذين رَوَوْ شعر العرب قبل الإسلام ودَوَّنُوا أخبارهم، وحملوا هذه الأمانة في أول الناس، تدلنا هذه الرواية على أنَّ هؤلاء العلماء كانوا يعرفون للعرب في جاهليتهم بَصَراً بالنقد، وعلما بما تقتضيه أحوال الكلام: من القصد في القول أحياناً، والمبالغة فيه أحياناً، وكان لهم مع ذلك خبرة بما يَحْسُن أنْ يستعمل من الكلام في مواطن كالفخر دون غيره، وبما يَجْمُل بالمتكلم أنْ يهجره ولا يعمد إليه.

كان العلماء في الصدر الأول يعلمون ذلك عن العرب، ولا بد أن يكون ذلك محلَّ إجماعٍ منهم، وإلا فما بال من لا يعلم ذلك ولا يُقِرُّه ولا يقول لمن يروي عنهم مثل هذه الرواية: إنكَ وَضَّاع مختلق، من أين للعرب معرفةُ مثلِ ذلك ؟ ومن الذي قال لهم: إن الأسياف والجفنات يَدُلاَّنِ على أقل العدد ؟ وإن معنى (يلمعن) دون معنى (يبرقن) وإن مناسبة (الدُّجى) لكرم الضيفان أشد من مناسبة (الضحى)، ونحو ذلك.

ونحن الآن نسلّم أن العرب في جاهليتهم، وقبيل شروق شمس الإسلام بنوع خاص، كان لهم بصر نافذ يدركون به ما نسميه في مصطلحات علوم البلاغة مقتضيات الأحوال، ويعرفون عن طريقه أن لكل كلمة مع صاحبتها مقاماً، وأن مقام الرثاء يباين مقام الهجاء، ومقام الفخر غير مقام النسيب، ونحو ذلك.

وأنت لا تستطيع أن تجحد ذلك. ولو أنك حاولت إنكاره لم يتأتَّ لك أن تقيم من أَوَدِ هذا الإنكار؛ ذلك بأن القرآن الكريم نزل عليهم في أعلى

درجات البلاغة. وأعلن عن نفسه أنه في منزلة لا تُدانيها منزلة. وأنه ليس في مقدور أحد أن يأتي بمثله ولا بِعشْرِ سُوَر من مثل سوره. وفهموه، وعرفوا له هذه المنزلة؛ فلو لم يكن لهم ما نثبت من البصر والعلم لكان القرآن قد نزل بغير لسانهم الذي يتعارفونه. ولكانوا قد أعلنوا عنه أنه لا يجري على السنن الذي يسلكونه في كلامهم. أو لم يكن لِتَحَدي القرآن إياهم فائدة، أو لم يكونوا ليدركوا سموَّ منزلته.

فالقرآن وحده دليلٌ ناهض على ما كان للعرب قبيل نزوله من الحِسِّ المرهف والإدراك النافذ، وتقديرُ كثير من عقلائهم للقرآن، وإيمانُهم بأنَّه لا سبيل إلى محاكاته، وبأنَّه لا يشبه سَجْع الكهان، ولا خَنْقَ السحرة ونَفْثَهم، كل أولئك دليل ناهض على أنهم كانوا ذوي خبرة بفُنُونِ القول وبمراتب الكلام.

❁ ❁ ❁

ولم تزل هذه القدرة تجري في عروقهم مجرى الدم؛ ففي صدر الإسلام تجد كثيراً من المـُثل التي تُعْلن عنها وتُجلِّيها، وكما تجد هذه المقدرة في الرجال تجدها في النساء! ولم لا يكون ذلك ؟ أليس البيان العربي حقاً شائعاً بين الرجال والنساء.

(١) قالوا: قدم ذو الرمة الكوفة، فلقيه الكميت، فقال له: إني قد عارضت قصيدتك! قال: أي القصائد ؟ قال: قصيدتك التي تقول في أولها:

ما بـــال عَيْنك منها الماء ينســـكبُ كأنَّــه مـــن كُلَى مَفْرِيَّـــةٍ سَرَبُ

قال: فأي شيء قلت ؟ قال: قد قلت:

هَلْ أنت عن طلـــب الإيقاع مُنْقَلِبُ أم هل يحَسُّـــنُ مِنْ ذِي الشَّيْبَةِ اللَّعِبُ

وما زال ينشد حتى أتى عليها. فقال له ذو الرمة: ما أَحْسَنَ ما قلت!. إلا أنك إذا شبهت الشيء لا تجيء به جيداً كما ينبغي، ولكنك تقع قريباً فلا يقدر إنسان أن يقول: أخطأت، ولا أصبت، تقع بين ذلك. ولم تصف كما وصفت أنا، ولا كما شبهتُ!.

ثم قال: أو تدري لم ذاك ؟ قال: لا. قال: لأنك تُشَبِّه شيئاً قد رأيته بعينك، وأنا أُشَبِّه ما وُصِف لي ولم أره بعيني! فقال: صدقت! هو ذاك.

(٢) وقالوا: وقَفَ كُثَيِّر على جماعة يُفيضون فيه وفي جميل بن مَعْمَر، أيهما أصدق عشقا ؟ ولم يكن القوم يعرفون كُثَيِّراً بوجهه، ففضلوا جميلاً في عشقه، فقال لهم كُثَيِّر: ظلمتم كثيراً، كيف يكون جميل أصدق عشقاً من كُثَيِّر، وهذا جميل أتاه عن بُثَيْنَة بعضُ ما يكره فقال:

رَمى الله في عَيْنَيْ بثينة بالقَذَى ... وفي الغُرِّ من أنيابها بالقوادحِ

فرمى بثينة بما يعيبها ويؤذيها، وكُثَيِّر أتاه عن عَزَّةَ بعض ما يكره فقال:

هَنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامرٍ ... لعَزَّة من أعراضنا ما استحلَّتِ

قال: فما انصرفوا إلا على تفضيلي.

(٣) وقالوا: اجتمع في ضيافة سُكَيْنَةَ بنت الحسين السِّبط بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- جريرٌ والفرزدق وكُثَيِّر عزة وجميل بثينة ونُصَيْبٌ، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم، فدخلوا، فقعدت حيث لا تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم، وأخرجت إليهم جارية لها وَضِيئَةً قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق ؟ فقال الفرزدق: ها أنذا، قالت: أنت القائل:

هُمَــا دَلَّتَــانِي مِــن ثمانِــين قامةً　　كما انقَضَّ بازٍ أقْتَــمُ الريش كاسِرُهْ

فلما اســتوت رجلاي بالأرض قالتَا　　أحَــيٌّ يُرَجَّــى أم قتيل نُحَــاذِرُهْ

فقلت: ارْفَعَا الأسباب لا يشعروا بنا　　ووَلَّيْــتُ في أعجــاز ليل أبــادرهْ

أحــاذر بَوَّابَــيْنِ قــد وُكِّلا بنــا　　وأحْمَــرَ من ســاج تئط مســامِرُهْ

فأصبحتُ في القوم القعود وأصبحت　　مُغَلقــةً دوني عليهــا دســاكرهْ

يرى أنها أضحت حَصَاناً وقد جَرَى　　لنــا بِرُقَاها مــا الذي أنا شــاكِرُهْ

قال: نعم، أنا قلته!.

قالت: ما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها؟ أفلا سترت على نفسك وعليها؟ خذ هذه الألف الدرهم وانصرف، قال: بل تركُهَا واللحاق بأهلي أجملُ.

ثم دَخَلَتْ وخرجَتْ فقالت: أيكم جرير؟ فقال جرير: ها أنذا، قالت: أأنت القائل:

طرقَتْكَ صائدة القلــوب وليس ذا　　حــينَ الزيــارة فارجعي بســلامِ

تُجْري الســواك عــلى أغَــرَّ كأنه　　بَــرَدٌ تحــدَّر عــن متــون غمامِ

لــو كان عهــدكِ كالــذي حَدَّثِتِنَا　　لوصَلْــتِ ذاك، فكان غــير رمامِ

إني أواصــلُ مَــنْ أردتُ وصالَــه　　بحبــال لا صَلِــفٍ ولاَ لَــوَّامِ

فقال جرير: أنا قلته، قالت: أفلا أخذت بيدها، ورحَّبْتَ بها، وقلت: «فادخلي بسلام» أنت رجل ضعيف، خذ هذين الألفين والحق بأهلك.

ثم دخلت وخرجَت فقالت: أيكم كُثَيِّر؟ فقال كثير: ها أنذا، قالت: أنت القائل:

وأعجبني يـــا عز منك مـــع الصبا   خلائقُ صـــدقٍ فيك يا عـــز أربَعُ
دُنُـــوُّكِ حتى يذكـــر الذاهل الصبا   ورفعك أســـباب الهوى حين يطمعُ
وأنـــكِ لا تدريـــن دَيْنًـــا مطلتـــه   أيشـــتدُّ مـــن جَـــرَّاك أو يتصدّعُ
ومنهن إكـــرامُ الكريـــم وهفوة الـ   لئيـــم وخَـــلَّات المـــكارم تنفـــعُ
أدمت لنـــا بالبخل منـــك ضريبة   فليتـــك ذو لونـــين يعطـــي ويمنعُ

قال: نعم، أنا قلته. قالت: ما جعلتها بخيلة تعرف بالبخل ولا سخية تعرف بالسخاء.

ثم دَخَلتْ وَخَرَجَتْ فقالت: أيكم جميل؟ فقال جميل: ها أنذا، قالت: أنت القائل:

ألا ليتنـــي أعمـــى أصـــم تقودني   بثينـــة لا يخفـــى عـــليَّ كلامهـــا

قال: نعم، أنا الذي قلته، قالت: أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصم إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة؟ قال: نعم، فوصلته كما وصلتهم جميعاً، ثم انصرفوا.

(٤) وذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يقول: لو أن كُثيراً قد قال بيته:

فقلـــت لهـــا يـــا عَـــزَّ كلُّ مصيبةٍ   إذا وُطِّنـــتْ يوماً لها النفـــس ذَلَّتِ

في حرب لكان أشعر الناس، ولو أن القَطَامِيَّ قال بيته الذي وصف فيه مشية الإبل بقوله:

يمشـــين رَهْواً فلا الأعجـــاز خاذلةٌ   ولا الصـــدور على الأعجـــاز تتكل

في النساء لكان أشعر الناس!!.



(٥) قالوا: ودخل ذو الرمة على بلال بن أبي بُردة، فمدحه بقصيدة قال فيها:

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصَيْدَحَ انتجعي بلالا

(وصَيْدَح: اسم ناقة ذي الرمة) فلما سمع بلال هذا البيت قال: يا غلامُ، اعلفها قتاً ونوىً (أراد بذلك قلة فطنة ذي الرمة للمدح).

(٦) قالوا: وكان كُثَيِّر يعيب عمر بن أبي ربيعة في قوله:

قالت لِتِرْبٍ لها تحدثها لتُفسِدِنَّ الطوافَ في عُمَرِ

قومي تَصَدَّيْ له ليُبصِرنَا ثم اغْمِزِيه يا أختُ في خَفَرِ

قالت لها: قد غمزتُهُ فأبى ثم اسبطرَّت تشتدُّ في أثري

ويقول: أردت أن تنسُبَ بها فَنَسَبْتَ بنفسك، والله لو وَصَفْتَ بهذا هِرَّة منزلك كنت قد أسأت صفتها، أهكذا يقال للمرأة؟ إنما تُوصَفُ المرأة بالخَفَر وأنها مطلوبة ممتَنِعة، هلاَّ قلت كما قال الأحوص:

لقد منعَتْ معروفَهَا أمُّ جعفر وإنّي إلى معروفها لفَقِيرُ

وقد أنكروا عند اعتراف زيارتي وقد وَغِرَت فيها عليَّ صُدورُ

أدور، ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور

❁ ❁ ❁

وجاء الإسلام بتعاليمه، وبنهضته التي تمشَّت في نواحي حياة العرب؛ فبعثهم من مَرْقَدهم، وأثارت ما كَمَن فيهم من وسائل الحياة والتدافع في طلب المجد من جميع وجوهه؛ فشغلهم ذلك حيناً. حتى إذا جاء دَوْرُ البحث وطلب العلم كان القرآن وعلومه أولَ ما اتجهت أنظارهم إليه، وكان القول في

بيان مَزِيّة القرآن على كل قول، وفي بيان ما انفرد به من وجوه الحسن، ثم بيان طريق إعجازه، كان القول في ذلك بعضَ ما اتجهت أنظارهم إليه، وحاولَت جهودهم الإبانة عنه.

ولفت ذلك أنظارهم إلى أساليب الكلام، وألوان الإبانة عن الغرض؛ كما لفت أنظارهم إلى وجوه الحسن في الكلام، وما يتميز به القول عن القول؛ فكان من مجموع ذلك كله (علوم البلاغة).

ونحن نُوجِزُ لك القول في ذلك مبينين لك الطريق التي سلكها هذا العلم حتى صار إلى ما تراه عليه اليوم.

-٢-

نشأ في القرنين الثاني والثالث من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة من حَمَلة العلم واللغة والأدب كان لهم الفضل الأول في بناء صَرْحِ البلاغة.

أولهم: أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بني تَيْمٍ رهط أبي بكر الصديق، وتلميذ يونس بن حبيب شيخ سيبويه إمام نحاة البصرة، وأستاذ أمير المؤمنين هارون الرشيد، ومُرَبِّي العلماء الفحول أبي عُبَيد القاسم بن سَلَّام وأبي حاتم والمازني، المولود سنة اثنتي عشرة ومائة، والمتوفى سنة تسعة ومائتين.

وقد صنف أبو عُبَيْدة كتاباً سماه (مجاز القرآن)[1] تَوَخَّى فيه أن يجمع أنواع أساليب القرآن في الدلالة على المعنى، من غير أن يزيد على شرح لفظ القرآن بقدر ما احتمله حِفْظُهُ، ومن ذلك الدلالة على بعض الألفاظ التي أريد بها غير معناها الأول في اللغة.

(١) يريد أبو عبيدة بكلمة (مجاز) التي سمى بها كتابه معناها اللغوي، فكأنه قصد إلى الطرق التي سلكها القرآن للتعبير عن المعاني، ولم يرد المعنى الذي يتعارفه علماء البيان اليوم، فلا جرم أنك تجد فيه كثيراً من العبارات المستعملة في حقائقها، وقد طبع كتابه هذا بمصر في مطبعة السعادة سنة ١٩٣٥.

وثانيهم: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، أحد شيوخ المعتزلة وأئمتهم، وصاحب القلم الذي لا يأخذه الملل، ولا تعتريه السآمة، وشيخ الأدباء والمصنفين، والمتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين عن نيف وتسعين عاماً؛ وله في كتابه (البيان والتبيين)[١] مباحث كثيرة في بيان الفصاحة والبلاغة، وفضل حسن البيان، مع بيان ما حسُنَ من السجع، وخفت فيه المؤنة، وجانَبَ طريق التكلف، وبيان ما ينبغي أن يكون الخطيب متحلياً به من الأخلاق.

وثالثهم: أمير المؤمنين أبو العباس المرتضي بالله عبد الله بن المعتز بن المتوكل، هو شاعر مطبوع مقتدر على الشعر، مُبدع للمعاني، وقد كان مع ذلك من كبار الأدباء العلماء، وناهيك بتلميذ المبرد وثعلب وأمثالهما من فحول العلماء، وله كتاب (البديع)[٢]، الذي جمع فيه ما استنبطه من مراجعاته وقراءته من أنواع البديع، وذكر أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد، وأنه لم يستوف كل الأنواع، وأباح لمن يأتي بعده أن يزيد عليه ما شاء، وأن يسمي ما جاء به بأي اسم أحَبَّ، وقد توفي في عام ٢٩٦ من الهجرة.

---

(١) طبع هذا الكتاب بمصر مراراً.

(٢) طبع هذا الكتاب في أوروبا، وطبع أخيراً في مصر. وقد نقل العلامة الصبان عنه قال: «أول من اخترع البديع وسماه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز، قال في صدر كتابه: وما جمع قبلي فنون البديع أحد» وانظر مطلع هذا الكتاب.

-٣-

وظهر في القرن الرابع الهجري ثلاثة رجال كان لهم فضل كبير في هذا الفن:

أولهم: أبو الفرج قُدَامة بن جعفر بن قدامة، صاحب كتاب (نقد النثر)، وكتاب (نقد الشعر)، وكتاب (جواهر الألفاظ)[١]، والمتوفى في عام ٣٣٧ من الهجرة.

وهو يقول في مفتتح كتابه نقد النثر: «أما بعد؛ فإنك ذكرت لي وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي سماه كتاب (البيان والتبيين)، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً منتخلة، وخطباً منتخبة، ولم يأت فيه بوصف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نُسبَ إليه. وسألتني أن أذكر لك جُمَلاً من أقسام البيان آتيةً على أكثر أصوله، محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدئ معانيه، ويستغني بها الناظر فيه، وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب».

ثم يبتدئ تصنيفه بتقسيم العقل إلى: موهوب ومكسوب، ثم يقسم البيان أربعة أقسام ويسمي الأول اعتباراً، والثاني ما يحصل في قلب الإنسان ولم ينطق به ويسميه الاعتقاد، والثالث نطق اللسان ويسميه العبارة، والرابع البيان بالكتابة.

ثم يذكر القياس والحد والوصف والاسم وأنواع البحث والسؤال، ويعقد باباً للنثر وأنواعه، ثم باباً للاعتقاد وأنواعه، ثم باباً للعبارة وأنواعها، ثم

---

(١) طبع (نقد النثر) في مصر مراراً، وطبع (نقد الشعر) في الأستانة وفي مصر، وطبع (جواهر الألفاظ) بتحقيقنا في عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠م.

باباً للاشتقاق، ثم باباً للتشبيه وأقسامه، ثم باباً للحن يتكلم فيه على التعريض ودواعيه، وباباً للرمز، وآخر للوَحي، ثم باباً للاستعارة والحاجة إليها، وباباً للأمثال، وآخر للغز، وباباً للحذف ودواعيه، وباباً للمبالغة وأقسامها، وباباً يذكر فيه القطع والعطف، وباباً للتقديم والتأخير[١].

ويتكلم بعد ذلك عن محاسن الشعر وبعض عيوبه؛ فيذكر في أثناء ذلك بعض أنواع البديع كما يذكر بعض الأسباب المخلة بفصاحة الكلام، ثم يتكلم على المنثور ويذكر الترسُّلَ، ويأتي بما اختاره من روائع الخطب وجيدها، ويتعرض لما ينبغي أن يكون عليه الخطيب.

وأما كتابه (نقد الشعر) فيفتتحه بشرح حد الشعر وأسباب جودته وأحوالها وأجناسها، ويذكر أن مناقضة الشاعر نفسَه في كلمتين ليست تُنْكر عليه، فإذا أشبع القول في الشعر عقد فصلاً تكلم فيه على النعوت المستحسنة للفظ والوزن والقافية، ويذكر في أثناء ذلك الترصيع ويكثر التمثيل له، ثم يعقد فصلاً للمعاني التي يدل عليها الشعر، وما ينبغي أن يكون عليه في كل معنى، ولا يُخلي ذلك من ذكر بعض أنواع البديع كالمبالغة، ويفضل الغلو عن الحد الأوسط؛ فإذا صار إلى نعوت التشبيه ذكر معناه أولاً، ويذكر بعض أنواعه ويُمثِّل لها، ثم يتكلم على التقسيم، والمقابلة، والتفسير، والتتميم، والمبالغة، والتكافؤ، والالتفات، والمساواة، والإشارة[٢]، والإرداف[٣]، والتمثيل، ثم يتكلم على ائتلاف القافية، ثم يعقد فصلاً يذكر فيه عيوب الشعر، وأجناس هذه العيوب، على ترتيب ما

---

(١) انظر الحديث عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٣.

(٢) هي ضرب من الإيجاز.

(٣) هو الكناية في إصطلاح المتأخرين.

ذكره في نحوها.

وأما كتابه (جواهر الألفاظ) فهو كتاب صنفه ليجمع فيه ألفاظاً وعبارات مترادفة مع تساوُقها في الوزن أو القافية أو فيهما جميعاً، وصَدَّره بمقدمة ذكر فيها الترصيع، والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ[١]، والعكس، والاستعارة، والتقسيم، والمقابلة، والمبالغة، وغير ذلك من الأنواع.

وثاني ثلاثة الرجال: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني[٢]، صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) وهو الشاعر المجيد المتوفى في عام ٣٦٦ من الهجرة، وكتابه هذا من خير كُتب العربية في النقد وبيان وجوه التفاضل بين الكلام وما يشبهه في معناه، وقد أودعه صاحبه الكثير من الشواهد، وصَدَّره ببيان أخطاء شعراء الجاهلية، وبعد أن عرض على قارئه نماذج من الشعر العذب أفاض في ذكر شواهد الاستعارة حَسَنها وقبيحها، وميز النوعين أتم تمييز، ثم جَلى لك أنواعاً من الجناس والتقسيم، واستشهد لكل واحد، ثم عاد إلى ذكر محاسن الشعر وعيوبه، وبعد أن قطع في ذلك شوطاً طويلاً ذكر التشبيه واختلاف الناس فيه، وعرض الكثير مما يستحسن منه، ثم ذكر كثيراً من السرقات الشعرية.

وثالث هذه الطبقة: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري صاحب كتاب (الصناعتين)، والمتوفى في عام ٣٩٥ من الهجرة. وقد صدَّر

---

(١) هو ضرب من الجناس.

(٢) ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر، وابن خلكان في (وفيات الأعيان)، الترجمة رقم ٣٩٧ في ج٢ ص٤٤ بتحقيقنا.

كتابه ببيان معنى البلاغة، واختلاف الناس في التعبير عنها،وضرب لك الأمثلة الكثيرة، ثم عقد باباً لتمييز جيد الكلام من رديئه، ومحموده من مذمومه، وباباً لمعرفة صناعة الكلام، وباباً أبان فيه عن حسن السَّبْك وجَوْدَة الرَّصْفِ، وباباً ذكر فيه الإيجاز والإطناب، وباباً ذكر فيه السرقات الشعرية، وما يحسن منها وما لا يحسن، وباباً ذكر فيه التشبيه، وباباً ذكر فيه السجع والازدواج، وباباً ذكر فيه خمسة وثلاثين نوعاً من البديع، وقد عَدَّ من البديع الاستعارة والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض، وليست عند المتأخرين منه، وذكر بعد ذلك باباً أبان فيه عما يحسن من المبادئ والمقاطع وما لا يحسن.

-٤-

وجاء بعد ذلك القرن الخامس الهجري، وكان قد نبغ في أواخر سابقه، وأوائل هذا القرن أربعة رجال كان لهم أكبر الفضل وأعظم المنة في تشييد هذا العلم وتدعيمه:

أولهم: شيخ أهل السنة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، صاحب كتاب (إعجاز القرآن)، والمتوفى في عام ٤٠٣ من الهجرة.

وكتاب أبي بكر الباقلاني -كما يدل عليه اسمُهُ- وضع للدلالة على وجوه الإعجاز التي تضمنها كتابُ الله، وقد حكى فيه أقوالَ العلماء الذين سبقوه، واختار منها ما رآه ناهض الدليل مستقيم الحجة، وقد نقد كثيراً من الشعر العربي، وتعرَّض للامية امرئ القيس المعلَّقة فشرحها وبيَّن ما فيها من البديع، كما تعرَّض لقصيدة لامية تعتبر عند العلماء من غرر شعر البحتري، فنقدها وبيَّن كثيراً من عيوبها، وهو في أثناء ذلك كله يبين ما يعرض له من البديع،

فيذكر تعريف البلاغة، ويذكر الاستعارة، وحسن التشبيه، والغلو، والمماثلة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والإيغال، والتوشيح، والتكافؤ، والكناية، والتعريض، والعكس، والتبديل، والاعتراض، والرجوع، والتذييل، والاستطراد، والتكرار وغير ذلك، وكلما ذكر نوعاً من هذه الأنواع جاء له بالأمثلة والشواهد، ثم بيَّن ما ورد منه في القرآن الكريم.

وثاني هذه الطبقة: الشاعر العظيم أبو الحسن محمد بن الطاهر الشريف الرضي الموسوي، المولود في بغداد عام ٣٥٩ والمتوفى في عام ٤٠٦ من الهجرة، وله في موضوع حديثنا كتابان؛

أحدهما: كتاب (تلخيص البيان، عن مجازات القرآن) ولم يقع لنا هذا الكتاب، ولكنه يحدثنا عن نهجه الذي سلكه فيه فيقول[1]: «إني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي أطلعتها، والدفينة التي أثَرْتُها، من كتابي الموسوم بـ (تلخيص البيان من مجازات القرآن)، وإني سلكت من ذلك محجَّةً لم تسلك، وطرقت باباً لم يطرق، وما رغبت إليَّ فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولمع البيان الغريبة، وأسرار اللغة اللطيفة، يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كَوَامنها[2]، وإطلاعها من مكمنها وأكنانها[3]، وتجريدها من خِلَلها وأجفانها، فيكون هذان الكتابان بإذن الله لمعتين يستضاء بهما، وعرنينين لم أسبق إلى قرع بابهما، فأجبتك

(١) في مطلع كتابه (المجازات النبوية) ص١٩، طبع بمصر عام ١٩٣٧م.

(٢) كوامن: جمع كامن، اسم فاعل فعله (كمن) من باب نصر، ومعناه: خفي واستتر.

(٣) أكنان: جمع كن - بكسر أوله - وهو الموضع الذي يخبأ فيه ويستتر.



إلى ذلك...».

والكتاب الثاني هو كتاب (المجازات النبوية) الذي جمع فيه جملة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم الموجز الذي لم يسبق إلى لفظه ولم يفترع من قبله، مما أتقن بعضه رواية، وحصل على بعضه إجازة، وخَرَّجَ بعضه تصفحاً وقراءة، ثم بين معاني هذه العبارة التي أريدت منها، كما بين المعاني التي وضعت لها العبارة أولاً، فجاء هذا الكتاب جامعاً لكثير من التطبيقات في أسلوب قلما يتأتى لغير الشريف الرضي وأضرابه ممن تعلق من اللغة بأقوى سبب، ومتَّ إليها بأوثق آصرة، وهو يطلق المجاز في هذا الكتاب - كما يطلق الاستعارة - على أوسع ما تعرفه اللغة العربية لهذين اللفظين من المعنى؛ فالكناية والتشبيه والمجاز المرسل والمجاز اللغوي والاستعارة، كل أولئك مجاز عنده، وإن شاء فاستعارة، وقد كان هذا معروفاً غير مستنكر إلى هذا الوقت، اسمع إليه يقول[1]: «ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار كرشي وعيبتي»، وفي هذا القول مجازان؛

أحدهما: قوله عليه الصلاة والسلام: «كرشي»، ويحتمل ذلك معنيين: أحدهما: أن يكون أراد عليه الصلاة والسلام أنهم مادتي التي أقوى بها وأفزع إليها كما تفزع ذوات الاجترار إلى أكراشها في انتزاع الجِرَّةِ منها، والاعتماد عند فقد المرعى عليها، فأراد أن الأنصار رحمة الله عليهم يمدّونه بأنفسهم، ويكون معوّله في السراء والضراء عليهم» اهـ. ولو أنه كان من المتأخرين لقال: إن في هذه العبارة تشبيهاً بليغاً؛ فهو عليه الصلاة والسلام يشبه الأنصار بالكرش، والجامع بين طرفي التشبيه أنَّ كل واحد منهما عليه مُعَوَّلُ المستنِدِ إليه واعتماده، وإليه فزَعه عند الشدة، ولجؤه عند اللأواء والكربة، ونحو ذلك.

(١) في ص (٦٣) من (المجازات النبوية).

وثالث هؤلاء: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزديّ، المولود في عام ٣٩٠، والمتوفى ليلة السبت غرة ذي القعدة من عام ٤٥٦ من الهجرة، وهو صاحب كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه[١])، الذي جمع فيه أحسن ما قاله كل واحد في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه، فإذا فرغ من القول على فضل الشعر والرد على مَن كرهه، وذكر مَن رفعه الشعر ومن وَضَعه، ومن قَضَى له الشعر ومن قضى عليه، وشفاعات الشعراء وتحريضهم، واحتماء القبائل بشعرائها، وفأل الشعر وطيرته، وما أشبه ذلك مما يتصل بالشعر والشعراء.

ذكر باباً للبلاغة، وباباً للإيجاز، وآخر للبيان وآخر للنظم، وباباً للبديع، وباباً للمجاز، وباباً للتمثيل، وباباً للتشبيه، وباباً للإشارة وأنواعها من التعريض والكناية والرمز والمحاجاة وغيرها، وباباً للتتبيع، وباباً للتجنيس، وباباً للتصدير، وباباً للمطابقة، وباباً للمقابلة، وباباً للموازنة، وباباً للتقسيم؛ وغير ذلك من أنواع البديع.

والرابع: هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، المتوفى في عام ٤٧٤ من الهجرة. وهو صاحب كتاب (دلائل الإعجاز)، وكتاب (أسرار البلاغة[٢]).

ولسنا نعلم أن أحداً استطاع أن يخدم هذا العلم بفكره وقلمه وجهده البالغ أقصى الوسع قبل الامام عبد القاهر الجرجاني. فإنه أول من حاول

---

(١) طبع كتاب (العمدة) في تونس، وطبع في مصر مراراً، وطبع بتحقيقنا مرتين أخراهما في مطبعة السعادة عام ١٩٥٥.

(٢) للإمام عبد القاهر الجرجاني كتب غير هذين الكتابين: من أهمها كتاب شرح فيه (الإيضاح) الذي صنفه أبو علي الفارسي في النحو شرحاً منقطع النظير، ومن هذا الكتاب نسخة كاملة في المكتبة الظاهرية بدمشق ويوجد نصفه في دار الكتب المصرية.

الفرق بين أنواع المجاز، وجعل بعضه مرسلاً وبعضه استعارة. وهو أول من بَيّن الفروق بين الأنواع المتشابهة، وحدَّ للمسائل التي يلتبس بعضها ببعض حدوداً تَفْصِل النوع من النوع، وتميز الصنف من الصنف، وهو -مع ذلك- أول من كتب في الفن الذي اصطلح المتأخرون على تسميته: (فن المعاني[1]).

وإنك لتعجب أشد العجب حين تقرأ ما بيّنا لك من كتب الذين سبقوا الشيخ عبد القاهر، ثم تقرأ بعد ذلك كتب الشيخ؛ أقول: إنك لتعجب أشد العجب حين تقرأ ما كُتب قبله، ثم تقرأ ما كتب هو؛ لما تجده من الفرق الواسع والمدى البعيد الذي بين كتب الشيخ وكتب أسلافه من العلماء؛ حتى لنتساءل -ولك أوسع المدى في الحرية أن تتساءل- كيف طفرت مباحث هذا العلم هذه الطفرة ؟ وكيف تأتّى للشيخ أن يجمع ما تشذّر، ويضم ما تفرق في كتب القوم، ثم أن يضيف إليها من مباحثه أضعاف أضعافها، كل ذلك بأسلوب أخّاذٍ وعبارة فتانة، وإنه ليعلّمك البلاغة بأسلوبه أكثر مما يُعلّمك إياها بقواعده.

وليس في كتب الشيخ من عيب، إلا ما تجده من الإطناب في الأمر والإكثار من توجيهه نظر قارئه إلى ما يريد، في عبارة فضفاضة، واسعة النطاق، يمكن أن يفهم آخرها على غير الوجه الذي فهم عليه أولها، وفيه تتسابق أفهام العلماء، وتتجاذب استنباطات المحققين، وعُذْر الشيخ في ذلك أنه حاول استنتاج قواعده من الأساليب، والأساليب كثيرة متشعبة، يَقْرُب بعضها من بعض، ويَبْعُد بعضها عن بعض أيضاً، والفرق بين بعضها وبعض قد يكون عسيراً؛ ثم هو أول من قصد هذا النهج من البحث على ما حدثناك آنفاً، ومع

---

(١) قد تكلم قدامة بن جعفر على الفصل والوصل، وعلى التقديم والتأخير، ولكنه كلام ليس في سعة بحث الشيخ عبد القاهر، وانظر ص ٢١ من هذه المقدمة.

هذا كله فلا تزال كتب الشيخ عبد القاهر إلى اليوم إمام كل علماء البلاغة الذي يتوجهون في بحوثهم إليه، ولا يتابعون في تحقيقاتهم سواه.

ولهذا الجهد الجاهد الذي بذله الشيخ عبد القاهر يجعله كثير ممن تصدى لتأريخ هذه العلوم واضعَ علم البيان.

-٥-

فلما كان القرن السادس الهجري نبغ فيه الإمام الذي لا يشق غُبَاره، ولا يدرك مَدَاه، ولا يجري أحد على واسع خطاه، العالم الذي فاق السابقين، وأعجز اللاحقين، ذلك هو جار الله محمود بن عمر الزمخشري صاحب تفسير القرآن الكريم المسمى بـ (الكشاف)، وصاحب كتاب (أساس البلاغة[1]) ، والمتوفى في عام ٥٣٨ من الهجرة.

أما كتابه الكشاف فقد أودعه أسرار العربية وأساليبها، فبيَّن حقائقها ومجازاتها واستعاراتها وتشبيهاتها؛ في تحقيق رصين، وتدقيق بارع، وأبان ما عجز عن تصوره الذين سبقوه، لا جرم اتخذه العلماء شِرْعَة يصدرون عنها، ويرتوون منها، وكان لهم المنَارَ الذي أوضح السبيل، فلست ترى من بعده أحداً إلا والكشاف هاديه ودليله.

وكتاب الله تعالى نموذج البلاغة العالية، ومثال الإعجاز الإلهي الذي تحدى مصاقع البيان فأخرسهم وأبطل حجتهم، فإذا انبرى لإيضاح بلاغته والإفصاح عن مكنونات أساليبه عالم فحل مثل جار الله أتى بالعجب العاجب، وهذا هو الذي حدث، فأنت لو قرأت الكشاف وجدت مسائل العربية،

---

(١) للزمخشري كتب كثيرة في اللغة والأدب والنحو وغيرها، وأكثرها معروف مشهور، ولكن الذي يعنينا من مؤلفاته هذان الكتابان.

نحوها وبلاغتها، قد عرضت لك في ثوب رائع يمثل لك حسن الأسلوب ودقته، وجمال المعنى وروعته، ويعطيك مع ذلك الفكرة العلمية الدقيقة، وقلما وجدت ذلك عند غيره إلا الذين قَفَوْا آثاره فأخذوا عنه.

وفي الحق أن الزمخشري -رحمه الله تعالى!- قد أفاد علوم القرآن وعلوم اللغة العربية بتفسيره هذا أكبر الفائدة، وعاد عليهما منه أعظم النفع، حتى كان خليقاً بما قيل فيه وفي السكاكي: «لولا الأعرجان لجُهلت بلاغة القرآن».

وأما كتابه (أساس البلاغة) فهو كتاب فذٌّ في العربية إلى يوم الناس هذا؛ فما نعرف أحداً من علماء هذه اللغة حاول من قبل الزمخشري أن يعمد إلى مواد اللسان العربي مادة فمادة يبين في كل مادة منها الاستعمالات الحقيقية لها، ثم يبين الاستعمالات المجازية؛ كما لا نعلم أحداً حاول بعد الزمخشري أن ينسج على هذا المنوال، فَيُتم البحث ويستقصي ما غاب عن ذهنه من مادة أو استعمال، فدل ذلك كله على أن الموضوع جدّ خطير لا يجسر أحد أن يخوض غمراته غير الزمخشري، ومن ذا الذي له مثل فكر الزمخشري الناضج، وذاكرته الواعية، وعلمه الواسع، وذهنه الصافي، ودقته الغريبة ؟. ثم من ذا الذي له مثل اطلاع الزمخشري وعظيم إدراكه ؟.

وبقدر ما أفادت علوم البلاغة من تمثيل الفكرة العلمية في كتاب الكشاف قد أفادت من الأمثلة التي تنطبق على هذه الأفكار في كتاب أساس البلاغة.

ولست أنا ببالغ ما أريد أن أقرره في ذهنك إذا قلت لك: إن تفسير الكشاف قد تكفل ببيان مسائل العربية كلها، وتعرض لآراء العلماء السابقين بالشرح أو الرد، وإنك لو خبرته لعرفت مدى صدق هذه الدعوى، ولو أن الذين نشروه لنا جشموا أنفسهم أن يضعوا فهارس وافية لما تَعَرض له جار الله

من المسائل لوجدت فيه كل ضالة تنشدها[١].

اسمع إليه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إيا: ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك إياك وإياه وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كما لا محل للكاف في أرأيتك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش، وعليه المحققون، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب (إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب) فشيء شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر:٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام:١٦٤] والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة، وقُرئ إياك بتخفيف الياء، وأياك بفتح الهمزة والتشديد، وهياك بقلب الهمزة هاء، قال طفيل الغنوي:

فهيــاك والأمر الــذي إن تراحبت ... مــوارده ضاقت عليــك المصادر

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه ثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج؛ ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى؛ لأنه مُولِي أعظم النعم، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع، فإن قلت: لم عَدَلَ عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ [فاطر: ٩]، وقد التفت امرؤ القيس

---

(١) إني أقول هذا الكلام عن خبرة، فقد درست قسمًا كبيراً من هذا الكتاب عدة مرات في كلية اللغة العربية.

ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

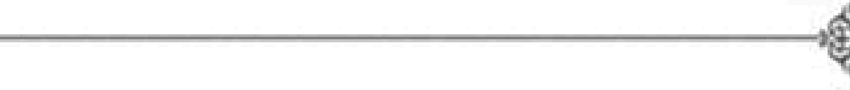
وذلك من نبإٍ جاءني وخُبِّرْته عن أبي الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أَحْسَنَ تَطْرِيَةً لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع[1] أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة به في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة ؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قُدِّمت العبادة على الاستعانة ؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها، فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: لتتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحُجَز

---

(١) يريد به موضع الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.



بعض[1] اهـ بحروفه.

فإذا قرأت هذه العبارة فأمعن النظر فيها، ثم أحْصِ المسائل العلمية التي تَعَرَّضَ لبيانها في تفسير جملة واحدة، فهو يشرح لك مرة مسألة اختلف فيها النحاة ويبين لك الرأي الناضج في هذه المسالة، ثم يبين لك بعد ذلك سبباً من الأسباب التي تقتضي تقديم المعمول على العامل ويستشهد لك عليها، ويشرح مسألة الالتفات ويبين بعض أسراره والدواعي إليه ويستشهد لك عليه، ويشرح لك كلمة شرحاً لغوياً ويبيّن لهجات العرب فيه، وهكذا مما تعرفه أنت إذا رجعت إلى هذه العبارة.

ومع أن جار الله الزمخشري قد حدد أنواع المجاز، وفَصَل بين ضروبه المختلفة، وبين المجاز جملةً والتشبيه، وبينه وبين الكناية؛ فإنك تراه في كتابه (أساس البلاغة) يدخل في باب المجاز أحياناً بعض التشبيهات وأحياناً بعض الكنايات على طريقة المتقدمين، وعذره في ذلك أنه يريد أن يبيّن المعاني التي خرجت إليها الألفاظ سوى المعاني الحقيقية التي وضعت لها في أول الأمر.

انظر إليه يقول في مادة (ف ل ز) بعد أن ذكر أن الفلز -بكسر الفاء واللام وتشديد الزاي-: هو اسم جامع لجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرهما. «ومن المجاز قولهم للبخيل المتشدد (فلز)، شبه بهذا الجنس ليبسه وجساوته أو لنبوِّه على طالبيه» اهـ.

---

(١) انظر الكشاف ج١ ص٤٨، طبع بولاق، سنة ١٢١٨ من الهجرة.

-٦-

ثم جاء بعد ذلك أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى في عام ٦٢٦ من الهجرة، وهو إمام جليل، دَرَجَ أولاً في حجر الفلسفة، وأولع بها، فملكت عليه نفسه، واستولت على تفكيره كله، فهو مفتون بها، مُغْرى بنظامها وحسن تهذيبها للفكر والعمل معاً، وهو من أجل هذا يريد أن يجعلها حكماً في كل علم، ولا يريد أن يقف عند حد من الحدود التي وضعها أسلافه، إلا أن يكون ذلك الحد لا يدخله الخطأ، ولا يعتريه الخلل في طَرْده أو عكسه.

وكان ذلك -في الحق، وإن لم يرض بهذا الحق أكثر الناس اليوم- من أعظم الدواعي وأجلها لتحديد مسائل هذه العلوم تحديداً علمياً دقيقاً، غاية في الدقة، وكان أبو يعقوب السكاكي صاحب الفضل الكبير على الناس إلى يوم الناس هذا في دراسة علوم البلاغة كمادة علمية لها قواعد متقررة ثابتة، وقضايا متميزة بعضها عن بعض أتم تميز، وله الفضل الكبير في تحديد الأنواع وضبطها ضبطاً يرد كل شيء إلى نِصَابه من غير أن يبقى كثيرٌ من فروع هذا العلم مترددة متذبذبة بين الأنواع، تارة إلى هذا، وتارة إلى ذلك.

ونحن نعلم أن كلمتنا هذه ستغضب كثيراً من الناس الذين لا يعرفون للسكاكي هذه المزية، ولا يدينون له بهذا الفضل، وهم يملأون الدنيا عليه جلبة وصُرَاخاً، وينسبون له أنه شَاكَ على المتعلمين طُرُقَ البلاغة، وعَقّد عليهم مسالكها، ووضع لهم العراقيل دون الوصول إليها، بما حاول من إخضاعها لقواعد الفلسفة، وبما حاط بحوثها من الجدل والفروض الخيالية، دون أن يرجع إلى أساليب من العربية واضحة المآخذ منيرة المعالم، ودون أن يكون

له من أسلوبه نفسه ما يرغب الباحثين في أبحاثه، ويشوق نفوسهم إلى اقتفاء آثاره.

نحن نعلم أن كلمتنا هذه ستغضب هؤلاء الباحثين، ولكنا -مع ذلك- نُصِرُّ عليها، ونقرها في هدوء المستيقن، ورزانة مَنْ لا تداخله خلجة شك فيها؛ ونقول: إنا لا ندري ما كان عسى أن يصيب مسائل هذه العلوم من التشزُّز[1] والشتات، وتفرق الأهواء لو لم يُتَحْ لها مثل عقل السكاكي العجيب.

ويحسبك أنك لا تجد كاتباً بعد السكاكي إلا رأيته قد سار على طريقته وتبع قَفْوَه، وتنكب طريق الناس أجمعين.

وليس بنا من حاجة إلى أن نذكر لك جملاً من كتابه (مفتاح العلوم) الذي جمع فيه خلاصة علم الصرف وعلم النحو وعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) وعلم الاستدلال (المنطق) وعلم العروض والقافية، وذلك لأن في استطاعتك أن تدرك من النظرة الأولى في القسم الثالث من هذا الكتاب -وهو القسم الذي خصه بالكلام على البلاغة وعلومها- مقدار ما بذله من الجهد لضبط مسائل هذه العلوم على النحو الذي قررناه لك.

وإن لم يكن لنا بد من ملاحظة على السكاكي فهي لا تعدو أنه أخلى كتابه من العبارة الرنانة وكثرة التمثيل، فجاء كتابه تقريراً للقواعد، وتحديداً دقيقاً لمشتبه مسائلها، وتفرقة بين الأمثال والنظائر، وتقريباً بين المتباينات. ولو أنه حاول ذلك في مثل أسلوب عبد القاهر ونَصاعة بيانه وسحر عبارته، ثم أكثر من الأمثلة والشواهد، لكان مرضياً عنه من الناس أجمعين.

---

(١) التشزز: الشزازة: اليبس الشديد. لسان العرب (شزز) (صالح).

-٧-

ثم جاء من بعد أولئك ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافعي المعروف بابن الأثير الجَزري، صاحب كتاب (المثل السائر)، وكتاب (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور)[(١)].

وضياء الدين بن الأثير ثالث ثلاثة إخوة كان كل واحد منهم من أساطين العلماء في فنه. وثانيهم عمدة المؤرخين أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم صاحب كتاب (الكامل) في التاريخ، والمتوفى في عام ٦٣٠ من الهجرة.

وثالثهم أبو السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، أشهر العلماء ذكراً، وأكبرهم قدراً، وأنبلهم شأناً، وهو من كبار المحدثين، ومن تصانيفه كتاب (جامع الأصول في أحاديث الرسول)، جمع فيه بين كتب السنة الستة الموثوق بها، والمعول بين علماء الأمصار عليها، وله كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) وهو كتاب فريد الوضع غريب الصنع، شرح فيه المفردات الغريبة التي تدور في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان كتابه هذا أحد الكتب التي جمعها ابن منظور في كتابه (لسان العرب)، وتوفي مجد الدين عام ٦٠٦ من الهجرة.

وابن الأثير الأديب يحدثك عن جَهْده الذي بذله في علوم البلاغة في مفتتح كتابه (الجامع الكبير) فيقول: «أما بعد، فلما كان تأليف الكلام مما لا

(١) طبع كتاب (المثل السائر) مراراً بمصر، وطبع بتحقيقنا طبعاً أنيقاً في سنة ١٩٣٩، وأما كتاب (الجامع الكبير) فلم يطبع إلى اليوم، ومنه نسخة خطية في مكتبتنا الخاصة جزء منها.

يوقف على غَوْره، ولا يعرف كنه أمره، إلا بالاطلاع على علم البيان الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان، احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور، إلى معرفة هذا العلم المذكور، فشرعت عند ذلك في تطلبه، والبحث عن تصانيفه وكتبه، فلم أترك في تحصيله سبيلاً إلا نَهَجْته، ولا غادرت في إدراكه باباً إلا ولجته، حتى اتضح عندي باديه وخافيه، وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه، كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وأبي عثمان الجاحظ، وقدامة بن جعفر الكاتب، وأبي هلال العسكري، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي، وأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، وغيرهم ممن له كتاب يُشار إليه، وقول تعقد الخَنَاصر عليه، ثم لما مضى على ذلك مَلاوَة من الدهر، وانقضى دونه برهة من العمر، لمحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء ظريفة، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة، فعرضتها عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها، والأصناف التي بيَّنوها في تصانيفهم وأوضحوها، فألفيتهم قد غفلوا عنها، ولم ينبهوا على شيء منها؛ فكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز والكشف عن سره المكنون، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته، وخلاصة هذا العلم وزبدته...»

فهو يعكف أولاً على دراسة كتب السلف من العلماء، ثم يعكف على قراءة الأمثال والشواهد، ومن بين ذلك آيات القرآن الكريم، ثم يقارن بين ما فهمه من هذه الشواهد وبين ما ذكره السابقون، فيبِينُ له أنهم لم يستوعبوا الأنواع ويستدرك عليهم ثلاثين نوعاً أغفلوها، ثم يصنف كتابه هذا في قطبين:

القطب الأول ينقسم إلى فنَّين: أحدهما فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، ويستوفي ما أراد من ذلك في أربعة أبواب، وثانيهما في الكلام على الألفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم، ويبلغ من ذلك ما أراد في ثلاثة أبواب.

والقطب الثاني ينقسم إلى فنَّين أيضاً: الفن الأول في الفصاحة والبلاغة، والفن الثاني: في ذكر أصناف البيان وانقساماتها، ويجعله على بابين: الباب الأول في الصناعة المعنوية، وتنقسم عنده إلى تسعة وعشرين نوعاً يذكر منها: الاستعارة، والتشبيه، والإيجاز، والإطناب، والكناية، والتعريض، والتفسير بعد الإبهام، والتقديم والتأخير، والتخلص والاقتضاب، والمبادي والافتتاحات، وقوة اللفظ لقوة المعنى والباب الثاني في الصناعة اللفظية، وهي عنده سبعة أنواع: السجع، والازدواج، والتجنيس، والترصيع، ولزوم ما لا يلزم، والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ، وتكرير الحروف.

وكتابه (المثل السائر) يجري على النحو الذي لخصنا لك طريقته؛ فهو يفتتحه بالخطبة التي لا تخرج في المعنى عما نقلناه لك من خطبة (الجامع الكبير)، وهو بعد ذلك يبني الكتاب على مقدمة ومقالتين، فيذكر في المقدمة أصول البيان، ويذكر في المقالتين فروعه، ويختص أولاهما بذكر الصناعة اللفظية، والثانية بذكر الصناعة المعنوية.

وقد توفي ضياء الدين بن الأثير في عام ٦٣٧ من الهجرة.

-٨-

ثم جاء بعد ذلك الإمام أبو المعالي جلال الدين قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم، القزويني، الشافعي، المولود في سنة ٦٦٦؛ والمتوفى في سنة ٧٣٩ من الهجرة، فأراد أن يجمع بين طريقتي الإمامين الشيخ عبد القاهر الجرجاني، صاحب (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) وأبي يعقوب السكاكي صاحب (مفتاح العلوم) ويضم إلى مباحثهما ما استدركه العلامة ابن الأثير صاحب (الجامع الكبير) و(المثل السائر) من الأنواع على من سبقه من العلماء؛ فبدأ عمله هذا بتلخيص القسم الثالث من (مفتاح العلوم)، الذي صنفه أبو يعقوب يوسف السكاكي؛ لأنه فيما رأى «أعظم ما صُنف في علم البلاغة من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً، وأتمها تحريراً، وأكثرها للأصول جمعاً»[1]، وأراد أن يكون كتابه خيراً من كتاب السكاكي؛ فجعله «مشتملاً على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم يأل جهداً في تحقيقه وتهذيبه، ورتبه ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه... وأضاف إلى ذلك فوائد عثر في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم يظفر في كلام أحد بالتصريح بها، ولا الإشارة إليها».

ويظهر أنه بدا له بعد أن أكمل تصنيف هذا الكتاب أنه قد جاء مختصراً أكثر مما أراد وشَرَط على نفسه، وأنه لم يأت فيه بما يَنقَع الغلة من الأمثلة والشواهد، فأراد أن يبسط عبارته بعض البسط، ويكثر من التمثيل والاستشهاد، مع عدم الإخلال بما وضعه عليه من الترتيب والضبط؛ لأن في ذلك كله تقريباً للكتاب من كتب الشيخ؛ إذ كان المختصر أقرب إلى تدقيق السكاكي، فوضع لهذه الغاية

(١) هذه العبارات من خطبة الخطيب في مفتتح كتابه (تلخيص المفتاح).

كتابه (الإيضاح) وهو يقول في مفتتحه: «أما بعد: فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصَّلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم»[1].

-٩-

وقد وقَفَت بعد الخطيب القزويني جهود العلماء. وثبت العلم في المكان الذي تركه الخطيب فيه، فبعد أن كان كل واحد منهم يأتي مستدركاً على مَنْ سبقه بعد أن يجيد كتبهم بحثاً، ويطيل النظر في الأساليب العربية محاولاً أن يقع منها على ما لم يظفر به أحد، بعد هذا كله صارت كتب الناس منذ ذلك الوقت إلى هذه اللحظة التي نكتب فيها كلمتنا هذه، عبارة عن اختصار كتاب مطول، إو إطالة كتاب مختصر.

ومن هذا النحو جميع شراح كتاب (تلخيص المفتاح)، فليس في واحد من هذه الشروح -على كثرتها واختلافها تطويلاً واختصاراً- زيادة مسألة واحدة في مسائل العلم، وليس في المختصرات التي حاول أصحابها تبسيط كتاب التلخيص وتقريبه إلى أذهان الطلاب مجهود موفق حاول صاحبه أن يجعل به

---

(١) من خطبة كتابه (الإيضاح).

مسألتين أو أكثر مسألة واحدة. وإنما انحصر جهد الباحثين وقوة المجتهدين في اختصار العبارة أو إطالتها، وفي الاعتراض على عبارة الخطيب أو الدفاع عنها على طريقة الفلاسفة وأهل الجدل لا على طريقة الأدباء وعلماء النقد اللغوي.

ومن شراح هذا الكتاب الشيخ الإمام العلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي، المولود في عام ٧١٢، والمتوفى في عام ٧٩١ من الهجرة.

وهو من العلماء الذين غلبت عليهم قواعد الفلسفة والجدل، فصنَّف في أكثر العلوم على طريقة واحدة: صنَّف في النحو، وفي الصرف، وفي علوم البلاغة، وفي أصول الفقه، وفي علم الكلام، وفي المنطق، وفي التفسير، وأخذ علمه عن القطب والعضد، وكان عالماً من فحول العلماء، له باع طويل في التحقيق الدقيق وفي الاعتراض على العبارة والجواب عنها، ولكنه كان صاحب لكنة في لسانه، وكانت هذه اللكنة سبباً في تفوق تلميذه -السيد الشريف الجرجاني علي بن محمد بن محمد بن علي الحنفي المتوفى في عام ٨١٦ من الهجرة- عليه، رحمهما الله تعالى!.

نسأل الله سبحانه أن يوفق ويعين بمنه وفضله، إنه ولي ذلك كله.

كتبه المعتز بالله تعالى أبو رجاء
محمد محيي الدين عبد الحميد
القاهرة في ذي القعدة ١٣٥٦
يناير من عام ١٩٣٨